مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 2 (رت 71) السنة: 2023

الصحافة الأدبية في الجزائر بين الهاجسين الإصلاحي والفنيّ قبل ثورة التحرير

The literary press in Algeria between the reformist and artistic obsessions before the liberation revolution

د. سامية بن دريس[1]
جامعة عبد الحفيظ بو الصوف– ميلة – الجزائر
s.bendris@centre-univ-mila.dz

تاريخ الوصول 2022/09/27 القبول 2022/11/12 النشر على الخط 2023/01/20
Received 27/09/2022 Accepted 12/11/2021 Published online 20/01/2023

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى استقصاء وضعية الصحافة الأدبية في الجزائر قبل الثورة التحريرية، بين الرسالة الإصلاحية والضرورة الفنية، مبينين في سياق ذلك دور الصحافة –عبر مراحلها المختلفة – وأثرها في تطور النثر المكتوب باللغة العربية، متوقفين مع أهم إشكالية فيه، وهي جدلية الأدبي والإصلاحي، بين الرسالة الاجتماعية التي تقتضيها المرحلة التاريخية التي مرت بها الجزائر وبين الضرورات الفنية، التي يستدعيها العمل الأدبي.

وقد تجلت هذه الجدلية عبر نماذج من الأدب الجزائري، توقفنا عند اثنين منها، تمثلا في بعض أعمال محمد البشير الابراهيمي وأحمد رضا حوحو، مشيرين إلى اختلاف الأدوات المعتمدة من قبل كل واحد منهما، مع توحد الغاية، التي أساسها بناء الأمة الجزائرية وخدمتها.

لننتهي إلى أن فئة من كتاب المقالة — على قلتها– استطاعت المزاوجة بين الجانبين، بتقديم نصوص تجمع بين الرسالة الإصلاحية والمتعة الفنية.

الكلمات المفتاحية: الصحافة– الأدبية– الإصلاح– الفن– الابراهيمي.

Abstract:

This research seeks to investigate the status of the literary press in Algeria before the liberation revolution, between the reformist message and the artistic necessity, showing in this context the role of the press - through its various stages - and its impact on the development of prose written in the Arabic language, stopping with the most important problem in it, which is the literary and reformist dialectic. Between the social message required by the historical stage that Algeria went through and the artistic necessities required by the literary work.

This dialectic was manifested through examples of Algerian literature, and we stopped at two of them, represented in some of the works of Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi and Ahmed Reda Houhou, pointing to the different tools adopted by each of them, with the unification of the goal, which is based on building and serving the Algerian nation.

Let us conclude that a group of article writers - despite its fewness - was able to marry the two sides, by presenting texts that combine the message of reform and artistic enjoyment.

Keywords: journalism - literary - reform - art – Ibrahimi.

[1] المؤلّف المراسل: **سامية بن دريس** البريد الإلكتروني: **s.bendris@centre-univ-mila.dz**

1. مقدّمة:

بحكم الظروف القسرية القاهرة التي عاشتها الجزائر، تحت الهيمنة الاستعمارية، تعرضت اللغة العربية لأشكال من الحصار والتضييق، لخنق أي مبادرة تحاول ربط الأمة الجزائرية بهويتها وتاريخها وعنوان وجودها.

ولاشك أنّ هذا الظرف القسري قد أثّر بشكل أو بآخر على وضعية وتطور اللغة العربية، التي اتخذت من الصحافة المكتوبة إحدى أهم قنواتها، للتعبير عن طموحات أصحابها وأفكارهم ورؤاهم، أولئك الذين انضوى جلّهم تحت لواء الحركة الإصلاحية، متبنين رسالتها، أو أولئك الذين ناضلوا في إطار الأحزاب السياسية الوطنية.

وبناء على ما سلف ذكره، فإن إشكالية مداخلتنا تتمحول حول وضع الصحافة الأدبية الجزائرية قبل ثورة نوفمبر بين الهاجسين الإصلاحي والفني، تتفرع عنها جملة من الأسئلة الجزئية تروم الإجابة عنها أهمها:

- هل يمكن الحديث عن صحافة أدبية في الجزائر قبل 1954؟
- ماهي أهم الموضوعات الأدبية التي قاربتها؟
- ماهي الخصائص الأسلوبية للمقالات الأدبية المنشورة؟
- من هم أعلامها؟ وأهم الصحف ذات المضامين الأدبية؟

2. الصحافة ودورها في تطور النثر في الجزائر:

تجمع جل المصادر التاريخية أنّ ظهور الصحافة المكتوبة باللغة العربية في الجزائر، تأخر نسبيا عن نظيرتها المكتوبة باللغة الفرنسية، لأسباب ترتبط بالسياسة الاستعمارية المنتهجة في الجزائر، لا يتسع المقام للتفصيل فيها. وتعد صحيفة "المبشّر" أول صحيفة تصدرها الحكومة الفرنسية سنة 1847م واستمرت إلى غاية 1927م، و"جعلتها اللسان الرسمي للولاية العامة (...) إلى أن استبدلت بالجريدة الرسمية"[1] حيث كانت تصدر باللسانين الفرنسي والعربي، ثم تلتها "جريدة النصيح" 1899م لصاحبها إدوار غزان ثم جريدة "الحق الوهراني" و وجريدة "الأخبار" بتاريخ 1902م. بيد أنّ هذه الصحف فضلا عن كونها صحفا إخبارية، فهي لا تعبر عن حياة الأمة الجزائرية، ولا عن هويتها الثقافية وكيانها المستقل، والأبواب الناطقة بالعربية فيها كانت تسند لموظفين جزائريين في الغالب. وتمثل الصحف المذكورة المرحلة الأولى في تاريخ الصحافة الجزائرية. أما في المرحلة الثانية فتعدّ "مجلة الجزائر" (1908م) لصاحبها الفنان الشيخ عمر راسم أولاها، ومع أنه لم يصدر منها سوى عددين، لانعدام المطابع العربية بالجزائر فإنها لقيت" إقبالا عظيما، لأنها كانت تعالج مواضيع حية كالاحتجاج ضد التجنيد الإجباري وفداحة الضرائب"[2]، لذلك صادرتها السلطات الاستعمارية.

وقد توالت الصحف والجرائد باللغة العربية في الصدور تحت عناوين متباينة واتجاهات مختلفة إلى غاية حرب التحرير، حيث تغيرت لهجتها وأهدافها. غير أنّ ما يهمنا في هذا السياق هو أثر هذه الصحف في تطور النثر العربي في الجزائر.

---

1. مفدي زكريا: تاريخ الصحافة العربية في، منشورات مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر، ط1،2003، ص54.
2. أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الدار التونسية للنشر، تونس/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1985، ص87.

يقسم أبو القاسم سعد الله تطور النثر إلى ثلاثة مراحل هي:

– **المرحلة الأولى**: وهي مرحلة التخلص من أسلوب الماضي المعروف بكثرة الترادف والسجع والاستشهاد بالشعر وبالعبارات المأثورة في ثنايا الكتابة والعناية بالديباجة والقشرة الخارجية للتعبير.

– **المرحلة الثانية**: وفيها ظهر أثر الصحافة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى، التي بدأت "تهتم بمشاكل الأدب والفكر وأن تخرج بقضية العروبة في الجزائر إلى مستواها السياسي محاولة بذلك ربط الحاضر بالماضي والتجاوب مع الأقطار العربية في مشاكلها وسيرها (...) وتبعا لنزعة التحرر تخلص النثر من أكثر المحتويات القديمة، ونبذ الطلاء ليعبّر عن الحقائق في أسلوب واضح سريع الحركة قصير الفاصلة، مباشر المعنى، وظهرت في الجزائر لأول مرة شخصيات متميزة وأقلام تحمل طابع الأصالة والعمق[1].

– **المرحلة الثالثة**: التي تبدأ بنهاية الحرب العالمية الثانية، وفيها شهد النثر تحولا هاما من حيث موضوعاته وأساليبه؛ إذ أنها "أكثر المراحل احتفاء بالأدب المحض، ففيها [1]ظهرت بذور القصة العربية وظهرت المسرحيات والروايات النثرية، وتقدمت المقالة فأصبحت تتميز بطابعها الفني المعروف... كما ظهر هذا الأسلوب النثري الذي يسمى الخاطرة أو الصورة الأدبية في شكل خفيف جذاب"[2].

وعلى العموم فإن النثر في الجزائر مرّ – تقريبا- بالمراحل نفسها التي مر بها بها النثر العربي في المشرق خاصة في مصر والشام، مع مطلع العصر الحديث متحررا تدريجيا من أشكال الصنعة والتنميق اللفظي مسايرا للقضايا الراهنة، فكانت موضوعاته استجابة لإملاءات الواقع السياسي والاجتماعي وما تتطلبه طبيعة المقال الصحفي من تركيز وقوة إقناع وما يحتاجه القارئ من زاد متنوع قوامه التشويق والتأثير. وإذا استثنينا قضية الصراع بين المحافظين والمجددين التي أثيرت بين رواد الاتجاهين في الصحف المشرقية، فإنّ معركة الجزائريين آنذاك لم تكن معركة فنية أو فكرية مع تيارات داخل الثقافة ذاتها، ولكنها كانت معركة من نوع مختلف، أو معركة إثبات الوجود واستعادة الذات – إذا شئنا – مع عدو سعى جاهدا لمحو الأمة الجزائرية ماديا وثقافيا ودمجها في كيانه.

ويربط أبو القاسم سعد الله هذه المراحل بصحف بعينها، فيذكر أنّ المرحلة الأولى تنتهي بظهور الشهاب 1925، والمرحلة الثانية بظهور البصائر الجديدة سنة 1947، لتفسح المجال للمرحلة الثالثة التي كانت أغنى تجربة وأكثر انطلاقا و أعمق مفهوما. ويضيف محمد ناصر أنه على الرغم من الظهور المبكر للصحافة المكتوبة باللغة العربية فإن ظهور المقالة تأخر عن ذلك لمدة قاربت النصف قرن[3]. ويعزو ذلك إلى أسباب متباينة أهمها السياسة الاستعمارية التي لم تدخر جهدا في خنق الصحف العربية والتضييق عليها، كما حدث لجريدة "المنتخب"و" المبصر" و"الحق" و"الفاروق" و"ذو الفقار"و" الإقدام" وغيرها، و"قد أصبح هذا السلوك الجائر، وهذه المصادمة العلنية لروح القانون إجراء معروفا تتخذه السلطات الإدارية ضد كل جريدة تصدر باللغة العربية أو تتجرأ على المطالبة بحقوق الأهالي، وتتولى الدفاع عنهم"[4]. بالإضافة إلى ممارسة الحصار عن طريق منع الصحف المشرقية من دخول الجزائر خاصة إبان الحرب العالمية الأولى (1914_1919). وبداية من سنة 1920 عادت الصف العربية إلى الظهور مثل "الإقدام" و"النجاح"

[1]. أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري، ص 88.

[2]. المرجع نفسه، ص نفسها.

[3]- محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها ، تطورها، أعلامها، ط1، خاصة بالجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 ، ص 38.

[4]- حمد ناصر: المرجع السابق، ص46.

و"الصديق"، فضلا عن صحف الحركة الإصلاحية التي اتخذت من "المنتقد "و"الجزائر" منبرا رسميا لها، غير أن يد الاستعمار ما لبثت أن أوقفتها، ناهيك عن الأعباء المادية الثقال التي كانت ترزح تحتها. وقد ظل هذا دأبها بين مد وجزر إلى غاية اندلاع الثورة؛ إذ كلما أوقفت الإدارة الاستعمارية صحيفة إلا وظهرت تحت مسمى جديدة، وتشبّث أصحابها وكتابها بمبدإ نشر الوعي والتأكيد على روح الهوية الثقافية للجزائر، مع تفاوتها في القدرة على الصمود، والمراوغة، أو المد

3. جدلية الفني والإصلاحي في الصحافة الجزائرية:

نفتتح هذا العنصر بالسؤال التالي: هل يمكن الحديث عن صحافة أدبية جزائرية؟ ولا نعني بذلك وجود صحف مستقلة تعنى بالأدب المحض – كما سماه أبو القاسم سعد الله– وإنما نعني مدى امتلاك المحررين والكتاب للغة أدبية، تمكنهم من التصدي لشتى المواضيع، دون الوقوع في هنات القصور اللغوي، وقد طرحنا هذا السؤال بالنظر إلى الوضع الاستثنائي الذي عاشته اللغة العربية في الجزائر، وما عرفته من تضييق وحصار ومنع، وقد أورد محمد ناصر نصا للزعيم المصري محمد فريد نشره بجريدة اللواء، بعد زيارته للجزائر سنة 1901 و بعد اطلاعه على أحوال البلاد والوضع المخزي الذي وضع فيه المستعمر الأهالي[1]، متحدثا عن حرمانهم من حرية الكتابة وحرية الاجتماع وحرية السفر وحرية مطالعة الكتب والجرائد. وقد أدرك الفرنسيون خطورة الصحافة المقاومة على وجودهم فمارسوا شتى أصناف الحصار والتضييق عليها، وخاصة الصحافة الإصلاحية التي حملت على عاتقها – بثبات – لواء تغيير الأوضاع وإيقاظ الشعب على الرغم من جميع العراقيل التي وضعت أمامها. ويمكن العودة إلى نماذج وأمثلة من ذلك في مختلف المصادر التي قاربت هذا الموضوع.

إنّ المتتبع لمختلف المقالات المنشورة في الصحافة العربية الجزائرية، ونخص بالذكر الصحف الإصلاحية، سيلاحظ أمرين شديدي الصلة بموضوع دراستنا، ونغني بهما قضيتي الوظيفة الإصلاحية والأدوات الفنية، والموضوعان لهما وشائج قربى ببعضهما؛ ذلك أنّ الرسالة الإصلاحية لا تتأتى عن طريق أداة عوجاء. ومعلوم أن الكتاب الأدباء كانوا على درجة من التمكن اللغوي، مع تفاوت بينهم؛ فمقالات محمد البشير الإبراهيمي تختلف من حيث مستواها الأدبي عن مقالات محمد السعيد الزاهري، أو أحمد رضا حوحو، أو أبي اليقظان أو غيرهم، ويعود هذا التفاوت لا إلى تفاوت مواهبهم فحسب، وإنما إلى توفر عوامل الاطلاع والاحتكاك التي ساعدت بعضهم دون بعضهم، ونخص بالذكر هنا الهجرة نحو المشرق والاحتكاك الثقافي الذي مكّن بعضهم من الانفتاح على أهم الاتجاهات الفكرية والفنية السائدة، وما يعتمل فيها من صراعات ومخاض، يسعى إلى النهوض بالحياة العربية في شتى مناحيها. وكانت الصحف العربية مسرحا لهذا الجدل والنقاش الثري الذي كان له الأثر المحمود، حيث "كشفت تلك الجرائد والمجلات للشبيبة الجزائرية عن الحالة السياسية والاجتماعية والدينية في سائر البلاد العربية، ولاسيما في مصر، وأثبتت لمواطنينا أنّ مشاكل إخوانهم الشرقيين لا تختلف عن مشاكلهم"[2]، عبر قنوات مختلفة كتونس أو المغرب أو رحلات الحج وما شابه، فاتحة أعينهم على حقيقة انتمائهم، مؤكدة على ارتباطهم الوثيق بالعد العربي الإسلامي. وقد انعكس ذلك على الموضوعات التي قاربتها الصحافة الجزائرية، سواء في الاهتمام بما نشر من كتب أو مقالات أو تكريم للشخصيات الأدبية، إذ "لم يتضح هذا التأثر فيما تشربته أفكار الكتاب

[1]. محمد ناصر: المرجع السابق، ص46.

[2]- المرجع نفسه، ص 61.

من الصحافة الشرقية بل اتضح كذلك في أساليب الكتابة عندهم.فإنه لا يصعب على الباحث أن يلاحظ الفرق الواضح بين أسلوب الكتابة عند الجزائريين قبل الحرب الكبرى، قبل اكتمال هذا التفاعل- وبين أساليبهم بعدها لا سيما عند شباب الحركة الإصلاحية التي كانت أعينها معلقة بالأفق الشرقي أبدا" [1]، متتلمذين على أيدي رواد المقالة من أمثال الرافعي و أحمد وفيق وأحمد أمين والزيات ورشيد رضا وآخرين، ممن كانت أقلامهم تخطّ حروفها على صفحات" الهلال والمقتطف والمنار[2].

ومن هنا كانت الصلة بين الكتاب الجزائريين واللغة والثقافة العربية تتوثق معززة تكوينهم الأصلي المعتمد على حفظ القرآن الكريم ومادار في فلكه من العلوم المنبثقة عنه بما في ذلك علم النحو والتفسير والفقه والتاريخ وغيرها. وبمعنى آخر فقد تملكوا ناصية اللغة العربية وتمكنوا منها، الأمر الذي يسر عليهم معالجة شتى الموضوعات السياسية والاجتماعية ، وحتى الأدبية – أحيانا وبدرجة أقل من سالفاتها- ومن ثمّ فقد زاوجوا بين البعدين الإصلاحي والفني، إذ تجلى ذلك على صفحات البصائر من خلال الأسلوب الأنيق والفكر الحصيف الذي وسم مقالات الشيخ البشير الابراهيمي (1889- 1965) باعتباره أعلاهم مقاما من الناحيتين الأدبية والفكرية، جامعا بين جمال الأسلوب ووضوح العبارة وعمق الفكرة وقوة الحجة، لذلك لعب "دورا رائدا في الصحافة بمقالاته وخطبه التي كانت تهزّ قلوب الجماهير وتفتح عيون المواطنين على خطر الاستعمار، مما هيأ كل طبقات الشعب لخوض غمار الثورة"[3]. والمتتبع لمقالاته سواء تلك المنشورة في "عيون البصائر" أو تلك المجموعة في "آثار الإمام الإبراهيمي" سيلاحظ آيات من الإتقان اللغوي الأسلوبي، وفي تخير اللفظ ومتانة البناء والاتساق والانسجام بين اللفظ والمعنى، ناهيك عن تناول القضايا المصيرية في شجاعة عزّ نظيرها، ولا عجب إن وجدنا أنّ كتاباته مازالت مدارا للدراسات الأدبية واللغوية والرسائل الجامعية وفق تقنيات المناهج الحداثية كالتداولية والحجاج والاتساق والانسجام التي هي من صميم قضايا اللسانيات النصية، ناهيك عن الاستعارة ودورها، إلى يومنا هذا. ولعل هذا ما دفع أنيسة بركات درار وغيرها من الباحثين إلى وصف مقالاته بأنها " صفحة مشرقة من النثر الفني تتجلى لنا من خلالها فصاحة الكاتب وبيانه الساحر، الذي كان يستعمله لإصلاح المجتمع الجزائري وتحتوي (...) على جانب أدبي يتميز بالتعبير الراقي وألوان من البيان وهناك جانب تربوي يحث على التوجيه السليم المستمد من الدين والإسلام"[4]، وسنورد فيما بعد نماذج من مقالاته التي جمعت بين جمالية الأسلوب ورقي الغاية والهدف.

ولا تقلّ كتابات أحمد رضا حوحو(1911_ 1956) قيمة وأهمية عن كتابات الابراهيمي مع اختلاف في أسلوب المعالجة وأدواته، من خلال مقالاته ومحاولات القصصية والروائية التي توجته رائدا ومؤسسا لفن السرد الجزائري، مع سمة بارزة هي السخرية التي وسمت كتاباته، الملتصقة أشد الالتصاق بالواقع الجزائري. مع العلم أنّ أحمد رضا حوحو وعلى الرغم من نزعته الإصلاحية، فإنه

1. أنيسة بركات درار: المرجع السابق، ص 167.
2. أنيسة بركات درار: المرجع السابق، ص 168.

مطلع على الآداب الأجنبية سواء عن طريق إتقانه للغة الفرنسية وتعليمه المزدوج، أو من خلال هجرته إلى البلاد العربية (الحجاز) أو رحلاته إلى البلاد الأجنبية. لذلك جاءت نصوصه استجابة للعاملين الفني والإصلاحي.

وما يقال عن مقالات الابراهيمي وحوحو ليس مطلقا، إذ لا يمكن إنكار طغيان المقالات ذات النبرة الخطابية والأسلوب التقريري المباشر، لدى مختلف التيارات مع تفاوت في درجة الإتقان أو الضعف وفي التقليد والتجديد، وقد لخص عبد الله الركيبي ذلك في قوله: "فإذا كان الكاتب ينتمي إلى الاتجاه المحافظ فإن أسلوبه تقليدي مباشر وفكره رجعي متخلف ولغته متكلفة جامدة لا روح فيها ولاحياة، ويمثّل هذا الاتجاه في الأسلوب واللغة تلك الفئة التي درست في الزوايا وفي مراكز "الطرق الصوفية" باستثناء القليل من المقالات التي كتبها بعض من أتيح لهم أن يطلعوا على الصحف العربية والمقالات الأدبية في العالم العربي.

كذلك فإن الذين ثقفوا ثقافة مزدوجة نلحظ في مقالاتهم تقليدا وضعفا من حيث الأسلوب واللغة ولكن نلحظ تجديدا من حيث الأفكار والنظرة إلى الواقع.

ثم هناك رجال الفكر الإصلاحي وهم الذين تأثروا بالثقافة العربية وبتراثها العريق وبنهضتها الحديثة في شتى الميادين الثقافية والأدبية والفكرية"[1]. وقد ميز في هذا الاتجاه الأخير نوعين من كتاب المقالة؛ أحدهما اهتم بتوصيل الفكرة بأسلوب صريح مع اهتمام باللغة من حيث المفردات والأصالة والقدرة على التبليغ وبالأساليب، مع إهمال اللذة الأدبية، وهذا النوع هو النموذج الغالب، وقد تجلى ذلك في كتابات ابن باديس والعربي التبسي والطيب العقبي وأحمد توفيق المدني وغيرهم، والآخر الذي عني إلى جانب الفكرة بجانب التصوير الأدبي، سواء باعتماد الأسلوب العربي المحافظ (الابراهيمي) أو من خلال التجديد في الصياغة والمحتوى معا كما هو الحال لدى أحمد رضا حوحو ورمضان حمود[2].

وعلى العموم فإنّ الكتابات الصحفية الجزائرية _ على قلتها_ وخاصة المقالات كانت على قدر لابأس به من النضج الفكري والفني، وبعضها غاية في الجودة والإتقان، إذ زاوج بين جمال الأسلوب ووضوح اللغة وسمو الغاية الإصلاحية، وبين المتعة والفائدة، محققة التأثير المطلوب في القارئ سواء بتوعيته أو بترقية ذوقه، سواء أكانت ذات روح تقليدية أو تميل نحو التجديد. وبمعنى آخر فقد كان للصحافة دور بارز في تطور المقال سواء أكانت إصلاحية أو سياسية أو أدبية.

4. نماذج من أدب أحمد رضا حوحو:

تمثل التجربة الكتابية لأحمد رضا حوحو منعطفا حاسما في مسار النثر الجزائري، لا بعدّه صاحب أول محاولة تأسيسية في فني القصة والرواية فحسب، وإنما بمقالاته ذات البعد النقدي، التي صورت المواقف الاجتماعية والسياسية بطريقة كاريكااتورية ساخرة "بريشة رسام موهوب، وسجل فيها الصراع الذي خاضه الشعب ضد الاستعمار"[3]، وتجلى ذلك بصورة خاصة في مقالاته القصصية المنضوية تحت مجموعة "مع حمار الحكيم" التي كان ينشرها في " البصائر"، ولئن كانت هذه المجموعة تطرح إشكالا على مستوى التجنيس، فإن ذلك لا ينقص من قيمتها الفكرية والفنية؛ ذلك أنها تمثل نموذجا حيا للهاجسين الإصلاحي والأدبي اللذين طرحناهما في مداخلتنا هذه، حيث اعتمد فيها معالجة مختلف القضايا والمشكلات التي واجهها المجتمع الجزائري بطريقة رمزية وسخرية لاذعة

1. عبد الله الركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث 1830_ 1974، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1983، ص137.

[2]- عبد الله الركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث 1830_ 1974، ص 139.

عل لسان الحمار، ولعل من أشهر تلك الآفات زواج المثقفين الجزائريين بالأجنبيات وما نجم عن تلك الظاهرة من انعكاسات على مستوى البنية الاجتماعية و الهوية الثقافية، في زمن كان فيه الشعب الجزائر يخوض معركة ضارية ضد الاضمحلال والامحاء في ثقافة الآخر/ الفرنسي المهيمن، فضلا عن قضية الشباب ومشكلة الاستعمار ، مهاجما في الوقت ذاته مختلف" مظاهر التزمت في العادات والتقاليد، من أهمها الطرقية والخرافات والزيارات (الأولياء) التي كان الاستعمار يستخدمها ويشجعها لتخدير عقول الشعب البسيطة، وانتقد بقاء المرأة في المنزل وهي لا تصلح لأي شيء، تعيش في جهل مدقع وتأخر، محرومة من العلم والثقافة والتقدم"[1] (درار، 1984، صفحة 171). وهذا ما يجسده مقاله الموسوم بـ"ساعة مع حمار الحكيم"، الذي نورد منه المقتطف التالي:

– هل تريد أن نطرق موضوع المرأة؟

– كن مرتاحا من هذه الناحية، فلا وجود للمرأة في بلادنا.

– عجبا ! أتعيشون بدون نساء؟ وطيف تتناسلون؟

– قلت: لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا.[2]

وبرأي أن غاية الكاتب لا تحتاج إلى عناء تفكير، من أجل إماطة اللثام عن الإلغاء والتهميش الذي عانت منه المرأة، إذ على بساطة الأسلوب نجد إدانة للمجتمع وأعرافه وتقاليده التي قيّدت المرأة وجعلت منها مخلوقا فائضا عن الحاجة، محصورا في المهمات البيولوجية.

والحقيقة أنّ أحمد رضا حوحو جرّد قلمه اللاذع من أجل انتقاد مجمل الظواهر السلبية، التي طفت على سطح الحياة الجزائرية على عهده، وبعضها مازال قائما إلى يومنا هذا. وليس أدل على ذلك هذه العناوين التي نشرت في البصائر، ومنها: فلسفة الحمار، أحزابنا السياسية، السعادة...إلخ.

ويمكن أن نتأمل هذا المقتطف من مقاله حول الأديب:" الأديب مخلوق عجيب وغامض كل الغموض وستضطرني إلى مراجعة مسوداتي وأوراقي البالية، كما يرجع التاجر المفلس إلى دفاتره القديمة (...) فالأديب بشر من حيث الشكل، ولكنه مخلوق آخر في أطواره وأفكاره ولايمتّ إلى أهل الأرض بصلة"[3].

وبحكم أن أحمد رضا حوحو مزدوج اللغة، وزار بعض البلدان الأوروبية، فقد أتيح له الاطلاع على نماذج من الأدب الغربي، وبناء تصورات حول العلاقة بين الشرق والغرب والصلات الثقافية بينهما، أو الكشف عن الصور الزائفة التي يحملها المخيال الغربي حول الشرق، وقد تمثل مؤلفنا ذلك في مقال موسوم بـ " نحن والغرب"، جاء فيه:

" وجدني حمار الحكيم في مناقشة مع كاتب غربي يزعم أنه يهتم بشؤون الشرق، يعالج مشاكله، ويصور النواحي الرائعة من حضارته، وقدّم إليّ هذا الكاتب رواية من تأليفه كبرهان على صدق قوله، ودليل على صحة زعمه، وطان ينتظر مني _دون شك– أن أغمره بعبارات الشكر والإطراء... ولهذا كانت دهشته كبيرة عندما قلت له:

– ولماذا تحمل نفسك هذا العناء كله؟!

---

[1]. أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر، ص 171.

[2]. المرجع نفسه، ص نفسها.

[3]- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم، المطبعة الجزائرية الإسلامية،ط1، 1953، قسنطينة، ص، 34.

– قال: أحمل نفسي هذا العناء؟! ذلك لأنني أعتقد أنني أخدم قضية عادلة.. لأنني أرى أنّ بعملي هذا، أستطيع أن أقرب بين الشرق والغرب، وذلك بأن أكشف للغربيين عن محاسن الشرقيين.

قلت: الأولى أن تكشف للغربيين عن مساويهم وبهذا فقط، تستطيع أن تقرب بين الطرفين المتباعدين...

قال: أنا لا أنكر أن للغربيين مساويهم ومحاسنهم كما أن للشرقيين مساوي ومحاسن، لكن لماذا ترى في ذكر مساوي الغرب أداة للجمع لا أداة للتفرقة؟

– قلت: إنك تسلم أن كل علاج للمشاكل لايبنى على أساس المساواة هو علاج لا يجدي"[1]. فالكاتب يقدم نموذجا عن النظرة المتعالية للغرب إزاء الشرق، والتي تكرس مركزيته، وترسخ الصورة المتخيلة التي يرسمها هو في ذهنه، وليس كما هي في أرض الواقع، أو كما يجب أن تكون.

ومن هنا، واعتمادا على ما سلف يمكننا القول بأن الغاية الإصلاحية جلية في الكتابات الصحفية لأحمد رضا حوحو، لكن طبيعة الموضوعات التي كان يقاربها، وربما طبيعة الجمهور الذي كان يتوجه إليه، ناهيك عن طبيعة المادة الصحفية ذاتها هي التي أملت عليه أن يستخدم أسلوبا مباشرا عاريا من الجمال الفني والصيغ الأدبية، في لغة واضحة مطعمة بالسخرية والنقد الاجتماعي اللاذع، لكنها لا تخلو من رسم بارع للشخصيات التي اختارها من قلب المجتمع الجزائري، خاصة في عمله "نماذج بشرية" مصورا فئاته المتباينة؛ من الإمام الذي باع ضميره للاستعمار إلى النائب الذي اشترى أصوات الناخبين وزين صدره بنياشين المستعمر، تغمره الأمية والجهل فيوافق على جميع القرارات.[2].

لهذا نعده من الأدباء الجزائريين الذين حرروا النثر من القوالب الجاهزة والصيغ الجامدة، وقادوا حركة التجديد باعتماد "أسلوب خفيف ولغة بسيطة وحوار ساخر ونقد لاذع"[3] ناهيك عن نشر الوعي واليقظة بين أفراد الشعب.

5. خاتمة:

في نهاية المطاف، وبعد هذه الإطلالة البسيطة على واقع الصحافة الأدبية في الجزائر، من خلال عناوين بعينها، وخاصة صحيفة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كانت موطنا لأهم المقالات السياسية والاجتماعية والأدبية لأهم الكتاب الجزائريين قبل الثورة التحريرية، وقد قادنا هذا الطواف إلى جملة من النتائج نذكر منها:

– تأخر ظهور الصحافة العربية في الجزائر.

– الصحافة أسبق ظهورا من المقال.

– تذبذب صدور الصحف العربية بسبب تعرضها للغلق والحصار والتضييق من طرف المستعمر.

– الدور البارز للصحافة في تطور المقال بشتى أنواعه.

– شهدت مرحلة ما بين الحربين وما بعدها ازدهار المقال بمختلف أنواعه.

---

1. أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر، ص 172
2. المرجع نفسه، ص نفسها.

- تفاوت الكتاب في مستواهم الأدبي.
- ركزت الصحف الإصلاحية على الرسالة والمحتوى الإصلاحي.
- اعتمد كتاب المقالات السياسية والاجتماعية على الأسلوب المباشر في معالجة قضاياهم.
- ارتبطت جل المقالات بالواقع الاجتماعي والسياسي الجزائري في راهنه آنذاك.
- عرف محمد البشير الابراهيمي بإنتاجه الغزير والمتنوع، وتراوحت مقالاته بين معالجة قضايا الأمة الجزائرية ونقد السياسة الاستعمارية وقوانينيها، وإبداء مواقف اتجاه الأحداث التي عاصرها. كما عرف ببراعته الأسلوبية وقدرته البيانية النابعة من تأثير ثقافته العربية الإسلامية، وتفاوتت مقالاته من حيث الأدبية.
- كما عرف أحمد رضا حوحو بتنوع معالجاته، بأسلوب تصويري ساخر ونقد اجتماعي لاذع، للظواهر الاجتماعية والسياسية، والنماذج البشرية التي عرفها المجتمع الجزائري، وبحكم ثقافته المزدوجة ونزعته الإصلاحية فقد جمع بين التجديد والرسالة الهادفة.

ومن هنا وجب لفت عناية الباحثين إلى ضرورة العناية بأدب هذه المرحلة ودراسته.

6. قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث. تونس/ الجزائر، تونس/ الجزائر: الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1985.
2. أحمد رضا، حوحو. (1953). مع حمار الحكيم. المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة.
3. أنيسة، بركات درار. (1984). أدب النضال في الجزائر من سنة 1945 حتى الاستقلال. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
4. عبد الله، الركيبي. (1983). تطور النثر الجزائري الحديث 1830_ 1974. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، ط1، 1983.
5. محمد البشير الابراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج3، عيون الصائر. الجزائر: دار الغرب الإسلامي، 1997.
6. محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها ، تطورها، أعلامها. الجزائر: وزارة الثقافة ، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007.
7. مفدي زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر. الجزائر: منشورات مؤسسة مفدي زكرياء، ط1، 2003.